

من كتب الشرق والغرب

شارلوت برونتي وقصة «شيرلى»

[هذا المقال كتب خاصة للمجلة ، كتبه الأستاذ بونامي
دوبريه من أكبر الأدباء الناقدين في إنجلترا ، وقد شغل
منصب أستاذ الآداب الإنجليزية عدة سنوات بجامعة فؤاد
الأول في عهدهما الزاهر .]

يظهر الكتاب المخلصون لفنهم — وشارلوت برونتي كانت مخلصه في كل عرق من جسدها —
فيما يخلقونه من أشخاص خياليين ، تلك الصفة في بني البشر التي يعجبون بها أكثر من غيرها
من الصفات أو التي يظنون أنها أهم الصفات . لذلك نجد في قصص شارلوت برونتي شخصاً
أو أكثر من الأشخاص فيه من صفة الاحتمال ما يكاد يزيد عن مقدور البشر ، وعادة يكون هذا
الاحتمال من النوع الصامت ؛ فهم يستطيعون أن يثبتوا لأشد المصائب صرارة دون أن
يتمللوا ، إذ يندمجون فيما لهم من فلسفة قائمة . ونرى مثلاً ذلك في جين إيبير في القصة التي تحمل
هذا الاسم ، ولوسى ستو في قصة «فيليت» . على أن الكتاب الذين ارتبطوا إلى مجلة الحياة
لسبب ما ارتباطاً لا يسعهم معه أن يفصلوا بين فئهم وبين تجاربهم ، لا يستطيعون إلا أن
يرددوا الحفا واحداً ؛ لذلك نرى أن شارلوت برونتي (وأختها آن كذلك) تكرر دائماً قصة
المرية المهمة ، أو كما سميت فكرة قصة سندير يلاوذلك ما نلاحظه في «جين إيبير» و«فيليت» ، وفي
هذين الكتابين فضلاً عن ذلك نجد صفة أخرى من صفات الكتاب الذين لم يروا إلا التليل
من التيارات الأساسية في الحياة شأن آل برونتي . وأقصد بذلك ابتعاد القصة عما يشغل
الإنسانية بوجه عام ، عن مصالحها ومضاماتها الدنيوية . والسير في هذا الابتعاد قد يبلغ
مدى بعيداً ، فيصير كأنه منظار نستبين به الحقيقة كما في رواية «سرفعات وذرنج» لاميلى برونتي .
ولكن الأمر يحتاج إلى فن كبير يبلغ مبلغ فن إميلى برونتي حتى يمكن بناء عالم صلب ومنهوم
من مجرد اندفاع العاطفة حيث نجد الحياة الجسدية إن هي إلا رمز للحياة النفسية ، وليس الجسد
الإغلافاً زائلاً للروح . ولم تقارب شارلوت هذا المستوى إلا في قصة «فيليت» . على أن هذا الكتاب
يحتوى على الكثير مما تنطوى عليه نفسها الدنيوية ، والكثير من الخيال البعيد الذي حاولت به
أن تموض عن الحياة التي جعلت منها سندير يلا قلقة لا تنهدر وظلت كذلك إلى نهاية حياتها تقريباً .
إن قصة الأخوات رونتي هي من أكبر القصص المؤثرة في العالم ، وهي تحتوى فوق ذلك
دلى آلام المأساة كما أنها تحمل معها الشعور الحقيقي في المأسى : وهو أن شيئاً عظيماً تطلب عليه
شيء شرير أو بليد أو غير صالح . ولكننا نريد أن نتكلم هنا عن كتب شارلوت ولا نريد أن
تعرض لقصتها إلا بقدر ما تائق ضوءاً على كتبها لاسمياً قصة «شيرلى» التي تختلف بعض الاختلاف
عن كتابها العظيم (ماقصة «الأستاذ» فانها لم تبلغ هذه المرتبة) . فما يسترعى الأنظار أولاني

هذه القصة أنها القصة الوحيدة التي لم تكتبها شارلوت برونتي بضمير المتكلم ، وكأنها تضع كتابا في ترجمة حياتها ، وهذا مما يجعل فارقا بين المؤلف والقصة ويجعل موضوعها أكثر اتساعا . لذلك نجد في شيرلى اتصالا مع عالم الأعمال الخارجى ، وهذا الاتصال معدوم أو يكاد يكون معدوما في بقية كتبها حيث نجد مظاهر النشاط الأخرى أو طرق الحياة وال عاطفة قائمة في الخلف لا تكاد تستين . أما في هذا الكتاب فإن مشاغل الحياة الدنيا تلعب دورها وتؤثر في حياة الناس الذين يقومون بهذا الدور . فالثورة الصناعية لا تقتصر على أن يظهر دخانها القائم على قطعة من القماش يقف أمامها المثلون . وليست ههنا وضجيج آلاتها ، واجتماع الممال التعمطين الذى يتضورون جوعا في منتصف الليل ، ونداءات أبواق الجند ، ليست هذه مجرد مناظر مصاحبة . ولكننا نجد البطل هو رجل مشترك فعلا في هذا النضال ، وأن مصير أشخاص آخرين يرتبط ارتباطا كبيرا بما يقع له من حوادث .

وليس معنى ذلك أن الصفات الخاصة بشارلوت برونتي قد أقصيت ، لا ! هذا غير صحيح . إن هذه الصفات قد اندمجت في شيء أكثر اتساعا ، وهذا ما يجعل رواية « شيرلى » أسهل في الفهم وأكثر اتصالا بمناظر الحياة عن الروايات الأخرى . قصة « شيرلى » وحدها بين كتب برونتي التي ينطبق عليها كل الانطباق اسم القصة التي من عملها أن ترسم الهيئة الاجتماعية لنفسها وتطلما على ما تقوم به . ومع ذلك ففيها جميع الصفات الأخرى ، في « كارولينا هيلستون » قوة الاحتمال الروحية ، وفي « شيرلى » قوة الاحتمال الجسدية ؛ فهي مثل إميلي برونتي في الحياة تكوى جرحها دون تردد ، إذ يعضها كلب قد يكون مريضا ، بمكواة من الحديد المحمى بالنار . ونجد في صورة كارولين الفكرة التي قامت عليها قصة سنديلا بحد أن غيرت شيئا ما ، ونجد هذه الفكرة وقد نقلت إلى الجنس الحشن في صورة لويس مور ، ونجد فوق ذلك مرة بعد أخرى ذلك التعارض ، الذى لا تستطيع شارلوت إلا أن ترسمه ، بين الحياة المادية والحياة الروحية . في ذلك النظر الذى رسمته في سواد الليل حين يتجادل مور وهيلستون والوديون فيما بينهم عن « المال والطعام والحياة » نجد شيرلى وكارولين تنظران إلى ما فوقهما « وحيدتين مع الليل الصديق ونجومه الصامتة وأشجاره الهامسة » . ونرى في صفحات الكتاب ، كما في سائر كتب شارلوت ، تلك الصرخة البائسة من أجل الحب — لا الحب الخفيف الذى نجده في قصة « مرتفعات وذرنج » ، ولكن الحب الذى هو « فضيلة إلهية » ، وهو « نار حية أتى بها من مذبح مقدس » وهو على أنه « أصدق وأبقى وأحلى . . . الأشياء التي نعرفها » هو أيضاً « أمرها مذاقا » .

لسنا بمنكرين أن مؤلفات شارلوت برونتي تحتوى على درجة من العمل العاطفي ، وعلى شيء من الاغراق في الحزن والفرح ، ولكن لا خطر في ذلك الأمر الأخير ما دام التدفق الطبعي يفتق ، وليس الفرض منه مجرد قشعريرة أبداننا . وإن ما يضيقنا شيئا ما في شارلوت برونتي هو المصادفات الغريبة المبالغتة التي نفاجا بها ، كما في شيرلى حين تتضابق لأن مسز برايور ظهرت على الصورة التي ظهرت بها أخيراً . وليس ثمة خطر من العاطفة عند ما تكون صادرة عن شعور صادق وموضوع العاطفة جديراً بها . ولكن إذا كان القصد منها تحريك مشاعرنا بغير ضرورة ، وإذا كان لا علاقة لها بالقصة ، بل هي تحول دون وضع تأثرنا في موضعه الحقيقي ، فإن التدرع بانارة العاطفة هو خطأ يدعو للأسف . وقد فرضت علينا الكتابة مثل هذه العاطفة الخاطئة حين طلبت إلينا أن نذرف الدمع على موت جيسى يورك قبل

ذلك بسنوات ، على حين كنا نحن في تلك اللحظة على استعداد لمشاركة كارولين هيلستون في شكوكها المؤلمة في أمر روبرت أهو سيأتي أم لا ؟

لقد ارتكبت شارلوت برونتي هذه الخطيئة ، خطيئة العاطفة المتصنعة ، أكثر من مرة ، ومع ذلك نراها تحذر الوقوع فيها . ولسنا نشعر أنها كانت تأتي هذا الخطأ عن عمد إرضاء لذوق الجمهور — وهو ما يقول به أكثر المفسرين — وقد نشعر بأن تحذيرها لقراءها بالأمانتظروا مواقف « غرام أو عاطفة أو شعر أو خيال » ولا مواقف « شهوة وتأثر واندفاعات قوية » إنما هو تحذير لنفسها بأن تتبعد عن كتابة هذه الأشياء بقدر ما هو تحذير لقراءها بالأمانتظروا البحث عن هذه الأشياء في كتبها . ولقد كانت شارلوت في حياتها صلبة تحاول أن تجرد نفسها من الأحلام الزائفة في السعادة كما هو شأن لوسي سنو في قصة « فيليت » ولكن الخيال الذي يأتي إلا أن يكون عوضاً عن هذا النزول لا يزال يبرز في كتبها ، فإذا لم تكن هنالك مواقف الغرام لم يبق غير اليأس . لذلك نجد في كتبها غراماً وعاطفة وشعراً ، وكل الأشياء التي قالت لقراءها في أول كتابها إنها لن تكتب عنها . إننا كنا نمجّب كيف تحتمل الحياة الواقعة وهي تكتب هذا الكتاب لو لم ينطو كتابها على هذه الأشياء . ففي هذه الفترة مات أخوها برانول الذي كان عزيزاً عليها ولكنه غير ناجح في الحياة ، وماتت أختها إميلي التي كانت تعبدها ، وماتت آن التي كانت تحبها حباً عميقاً ، فالعالم الذي كانت تعيش وتناضل في بطولة من أجله انهار من حولها ، ولكنها ظلت تسعى في طريقها .

فليس من المستغرب إذن أن يكون هذا الكتاب أقل مرحاً في نهايته منه في مبدئه ، بل الواقع أنه ليس في الكتاب من عبارات مرحة مثل العبارة التي ابتدئ بها : « لقد تساقط على شمال فرنسا في السنوات الأخيرة مطر من القسس حتى كادوا ينظنون سفوح الللال . . . » ومع ذلك ففي القصة حتى نهايتها شيء من الفكاهة سواء في مجرى حوادثها المتن أو في تقديمها الاجتماعي ، وهذا ما يجعل « شيرلي » قصة تشابه القصص العادية ، فقد كان القصصى ترولوب يستطيع أن يرسم حوادث آل يورك ولكنه ما كان يستطيع أن يسير بها كما فعلت شارلوت . ولقد تعلم أكثر من كاتب بعدها أو منها كيف يصور القسس النقاء ومسر سيمسون المكروهة . ليست صورة روبرت مور مما يبعد عن متناول القصاصيين ؛ فإن أخطاءه نتيجة للضعف الانساني العادي لا نتيجة للقوة كما هو شأن مسيو بول في قصة « فيليت » ، ولا هي نتيجة لقوة العاطفة كما هي في روتشستر في قصة « جين إير » . ولعل في لويس مور من حسن الصورة ما يجعلها غير حقيقية . ولعل صورة شيرلي نفسها التي صورت فيها إميلي برونتي في ظروف أسعد من ظروفها هي أقرب إلى صور المجامع الفنية منها إلى صورة مخلوق ذي لحم ودم ، غير أن مجموع الأشخاص في تلك القصة اللذيذة المؤثرة سواء رأينا مثلهم في روايات الآخرين أم كانوا من خصائص تصوير برونتي يعيشون بقوة وصفات هي خاصة بهم . ومهما كان رأينا في مؤلفات شارلوت برونتي إذ عمدتها لسمو خيالها أو ترتعش لعنق تفكيرها أو لما تفتحه لنا من آفاق فيما وراء نظرها العادي ، أو مهما أسفنا من جهة أخرى على ما فيها من نقائص ومن سقطات أحياناً أو إهمال للمشاعر اليومية في الحياة ، فلا يمكن لأى إنسان أن ينكر ما فيها من موهبة أساسية ، وبغيرها تكون جميع المزايا تافهة ، وهي التي تغطي على كثير من الأخطاء ، وهي موهبة الحيوية الكبيرة .